إمام العربية واللغة والبيان
عبد القاهر الجرجاني

تمهيد:

يُعد الإمام عبد القاهر واحدًا من الذين تفخر بهم الحضارة الإسلامية في مجال الدرس اللغوي والبلاغي، إذ تقف مؤلفاته شامخة حتى اليوم أمام أحدث الدراسات اللغوية، ويُعد كتابه "دلائل الإعجاز" قمة تلك المؤلفات؛ حيث توصل فيه إلى نظريته الشهيرة التي عُرفت باسم نظرية التعليق أو نظرية النظم، التي سبق بها عصره، وما زالت تبهر الباحثين المعاصرين، وتقف ندًا قويًا لنظريات اللغويين الغربيين في العصر الحديث.

يلاحظ المشتغلون بعلم اللغة أن الإمام عبد القاهر قد سبق في دلائل الإعجاز الكثيرين من الباحثين الغربيين بعدّة قرون في عديد من الأفكار؛ فقد سبق الفيلسوف الإنجليزي جون لوك في الإشارة إلى عملية الاتصال اللغوي، وسبق العالمين: دي سوسير وأنطوان مييه في كثير من أصول التحليل اللغوي، وسبق العالم الألماني فنت في أصول مدرسته الرمزية، وسبق العالم الأمريكي تشومسكي في الكثير من أصول مدرسته التحويلية التوليدية.

وقد أصاب عبد القاهر الجرجانيُّ حظّاً عظيمًا من الشُّهرة، "وصار الإمام المشهور المقصود من جميع الجهات"[(١)]، وهو "أول مَن دوَّن علم المعاني"[(٢)]. وذاع صيت نظريَّته في النَّظم التي وضَّح من خلالها علاقة النَّحو بالبلاغة، وأثارت آراؤه اهتمام المعنيِّين بالدِّراسات النَّقديَّة والبلاغيَّة. "وله شعر كثير"[(٣)] أيضًا، فهو أديبٌ ناقِدٌ شاعرٌ.

والجرجانيُّ من أئمَّة النُّحاة، "وله فضيلة تامَّة في النَّحو"[(٤)]، وقد "انتهت إليه رئاسة النَّحو في زمانه"[(٥)].

---

(١) انظر: نزهة الألباء ٢٧٤، ووفيات الأعيان ٣/٣٣٧.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٤٩.

(٣) انظر: البلغة ١٢٦.

(٤) انظر: البلغة ١٢٧.

(٥) انظر: شذرات الذهب ٣/٣٤٠.

فهو بالأساس "رجل نحوي، وهكذا كان يسمَّى قديمًا، وأقواله بالأساس أيضًا دفاع عن النحو، بل إنَّ علمَ المعاني الذي قيل إنَّه واضع أصوله لم يكن إلا إحياءً لروح المعنى والحسِّ والتَّذوُّق في علم النَّحو بعد أنْ أَجْهَزَ النُّحاةُ على كلِّ هذا بتعليلاتهم وتحليلاتهم وحُججهم الدَّائرة حول قضيَّة الإعراب"(١).

ويتجلَّى دفاع عبد القاهر الجرجانيِّ عن النَّحو وإعجابه به في ما ذهب إليه في (دلائل الإعجاز) حين عاب على قوم ظَنَّهم النَّحوَ "ضربًا من التكلُّف وبابًا من التَّعسُّف"، وغير ذلك من الظُّنون والآراء التي بلغ من إنكار الجرجانيِّ لها أن قال في معتقدِيها: إنَّهم "لو علموا مغبَّتها وما تقود إليه لتعوَّذوا بالله منها، ولأَنِفُوا لأنفسهم من الرِّضا بها، ذاك لأنَّهم بإيثارهم الجهلَ بذلك العلم في معنى الصَّادِّ عن سبيل الله والمبتغي إطفاء نور الله تعالى"(٢).

اسمه ونسبه:

هو الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، ولد في جرجان - وهي مدينة معروفة بين طبرستان وخراسان - ونسب إليها، وكان ذلك في مطلع القرن الخامس الهجري.

أخذ علمه عن شيخه أبي الحسيين محمد بن عبد الوارث الفارسي ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي.

تكاد تجمع المصادر التي ترجمت له أنه إمام العربية واللغة والبيان، مع تديّن وورع وسكون وعفّة.

كان شافعي المذهب، متكلماً على مذهب الأشعريين.

قال عنه الفيروز أبادي "أول من دون علم المعاني ".

تلاميذه:

ومن تلاميذه: يحيى بن علي الخطيب التبريزي، وعلي بن زيد الفصيحي، وأبو نصر أحمد بن إبراهيم بن محمد الشجري، وأحمد بن عبد الله المهاباذي (الضرير) صاحب

---

(١) انظر: المقتصد ١٤.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ٢٥.

شرح "اللمع " لابن جني. دوّت شهرته في الآفاق، فعدّه أبو البركات الأنباري من أكابر النحويين، وعدّه الباخرزي – معاصره – من الأدباء، وقال فيه: "هو فرد في علمه الغزير، لا بل هو العلم المفرد في الأئمة والمشاهير، واتفقت على إمامته الألسنة". وقال فيه الفيروز أبادي: إمام العربية واللغة والبيان.

وقال عنه السيوطي: "وكان من كبار أئمة العربية والبيان، فهو أديب عالم لغوي عميق الفكر والثقافة، عمدة في البلاغة العربية، وإضافة إلى ذلك فله شعر كان ينفث فيه ما في نفسه من لواعج، لكن شعره – القليل – لم يَرْقَ به إلى مرتبة الشعراء، وفي ظني أنه لم يقصد ذلك، ولو قصد لأجاد، لتمكنه وموهبته وبيانه. وقد حفظت الكتب التي ترجمت له بعض أشعاره.

سجل عبد القاهر في بعض شعره موقفه من الزمان، ونفاق أهله، وتكالبهم على الدنيا بكل الوسائل، وتفريطهم في العلم والتنكر له ولأهله، وأجتزئ ما يصور ذلك واضحاً، فهو يقول:

هـــذا زمـــان لـــيس فيـــه ســـوى النذالـــة والجهالـــة
لـــم يَـــرْقَ فيـــه صـــاعدٌ إلا وســـــلّمه النذالـــــة

ويقول أيضاً:

كَبِّـرْ علـى العلـم يـا خليلـي ومِـلْ إلـى الجهـل مَيْـلَ هـائم
وعـش حمـاراً تعـش سـعيداً فالسـعد فـي طـالع البهـائم

مكانته العلمية:

لعلّ قول من ترجموا له "هو إمام العربية واللغة والبيان " شاهد له على علوّ منزلته العلمية، فإنْ نظرنا إليه من زاوية الأدب فهو أديب، ومن زاوية البلاغة فهو قمة في بلاغته وبيانه، وهو "أول من دوّن علم المعاني " ولو نظرنا إليه من زاوية الدراسات اللغوية لوجدنا جهوده ومؤلفاته – ما وصل إلينا منها وما لم يصل – ترفعه إلى مصافِّ الكبار، إضافة إلى نظراته التجديدية في "دلائل الإعجاز" وفي النظم تحديداً.

ولكن من يتتبع جهود النحويين والذين ترجموا لهم عبر القرون، يحسّ بأن القرن الخامس الذي عاش فيه عبد القاهر لم يُنْصَف، ففي القرن الثاني كان الخليل وسيبويه والكسائي ويونس، وفي القرن الثالث الفرّاء والأخفش الأوسط والمازني والمبرد، وفي

القرن الرابع ابن السراج والزجّاج والزجّاجي والسيرافي والفارسي وابن جني. وفي السادس الزمخشري والأنباري، وفي السابع ابن مالك...، فنكاد نحسّ بأنهم أرادوا أن يقولوا إنّ القرن الخامس خالٍ من المشاهير.

مؤلفاته:

وأقول إنّ عبد القاهر سار في خط النحو التقليدي، وله كتاب عظيم وهو "المغني في شرح الإيضاح " - إيضاح الفارسي -، وهو في ثلاثين مجلداً، واختصره في كتاب "المقتصد في شرح الإيضاح، وله أيضاً: الإيجاز- وهو مختصر لإيضاح الفارسي، وكتاب التكملة أو التتمة، والجمل، والعوامل المائة وغيرها.

وهو في الوقت نفسه مجدد في مجال الدراسات اللغوية (النحوية والصرفية)، فهو يربط الشكل بالمعنى، وقد ربط بين علم النحو وعلم المعنى، وهذا ملحظ راقٍ متقدم، تنزع إليه الدراسات اللغوية الحديثة، ولو أحسن استثماره وتبنيّه منذ عهد عبد القاهر لتقدمت الدراسات اللغوية العربية تقدّماً كبيراً.

ونستطيع القول إنّ جهود عبد القاهر العلمية تشعّبت وتنوعّت، وأبدع في كل مجال خاضه وصنّف فيه، فهو إمام في اللغة، كما هو إمام في الدراسات النقدية والبلاغية، والأدبية والأسلوبية، والدراسات القرآنية وإعجاز القرآن، والعروض.

ويليق أن نذكر ما قاله طاش كبري زاده فيه: "ولو لم يكن له سوى كتاب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لكفاه شرفاً وفخراً.

ولعلّ ما يوضح منزلته العلمية وأصالته ما كتب عنه وعن كتبه في الماضي والحاضر، فهو رجل شغل الناس بعلمه، فهو أمّة برأسه ونسيج وحده.

ولكن، يبقى سؤال محير قائماً، وهو: ما سرّ ذمّه زمانه وعصره وأهل عصره؟

في رأي أن الشيخ لم ينل ما كان يستحقه من الفهم والتقدير لعلمه، فهو ذو نزعات تجديدية مخالفة - نوعاً ما - للموروث في زمانه، فكأني به أنه كان يحسّ أنه في واد وأهل زمانه في واد، ولم تُجْدِ صرخاته التجديدية التي كان يأمل لها أن تجد آذاناً صاغية، وأن يتفهمها معاصروه ويسيروا على خطاها.

إضافة إلى شدة ورعه وعفته وتديّنه، مما ولّد لديه عزوفاً عن الدنيا التي فتنت - وتفتن - الناس، وحساسية زائدة مما كان يجري حوله.

أما مذهبه في دراساته اللغوية، فأميل إلى أنه كان على خطّ مدرسة فكرية مستنيرة خاصة، ربما تبدأ بيونس فالأخفش الأوسط، فالجرمي، فالمبرد، فابن السراج فالفارسي

- أبي علي - فابن جني، إذ إن آراء هؤلاء تكشف عمقهم وفكرهم، ومخالفتهم معاصريهم وسابقيهم، ونزوعهم إلى التجديد نوعاً ما.

أما مصنفاته وآثاره العلمية فقد حاول حصرها الدكتور أحمد مطلوب في كتابه "عبد القاهر الجرجاني - بلاغته ونقده "، والدكتور البدراوي زهران في كتابه "عالِم اللغة - عبد القاهر الجرجاني - المفتنٌ في العربية ونحوها".

وفاته:

وتوفي سنة ٤٧١ هـ، وقيل سنة ٤٧٤ هـ.

مصادر الترجمة:

١- نزهة الألبّاء ٣٦٣.
٢- إنباه الرواة ٢ / ١٨٨.
٣- فوات الوفيات للكتبي ٢ / ٣٦٩ (تحقيق د. إحسان عباس).
٤- مرآة الجنان ٣/ ١٠١.
٥- النجوم الزاهرة ٥ / ١٠٨.
٦- البلغة ١٢٦.
٧- شذرات الذهب ٣/ ٣٤٠.
٨- طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣/ ٢٤٢ (دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت).
٩- وبغية الوعاة ٢ / ١٠٦.